

لماذا يعزف التلاميذ عن مادة البلاغة ؟

الدكتورة : رشيدة آيت عبد السلام
المدرسة العليا للأساتذة ببوزريعة

ملخص:

المتعلم، على غرار أي إنسان، نفعي عند إقباله على المعرفة؛ فلا تحرّكه أي رغبة أو إرادة في حالة ضبابية الأهداف التي قد يمكنه تحقيقها لو مارس تعلّماً محدّدة. وهكذا نجد المتعلم الجزائري يعزف عن البلاغة، وهو يصرّح أن دراسة هذه المادة لا تفيده في شيء، ولا يرى الجدوى منها.

الأمر الذي سنتوقّف عنده في هذا المقال، محاولين الكشف عن أهم الأسباب التي كثرت ما جعلت المتعلم ينظر إلى البلاغة على أنها مادة صعبة، غير ضرورية في دراسة اللغة، غير متماشية مع العصر...

إن أشهر الطرائق التي يُستند عليها في تدريس القواعد النحوية هي الطريقة الاستنباطية والاستنتاجية والقياسية، وهي ذاتها التي نعتمدها في تدريس البلاغة؛ بغض النظر عن اختلاف طبيعة النحو والبلاغة، وأهداف تدريسهما والوسائل المناسبة لهما...

فتعليمنا للبلاغة، من الثانوي إلى الجامعي، تقليدي لأننا لا نولي أي اهتمام لما يميّز مادة عن أخرى.

كما يُعتمد في المادتين على الشواهد التي سُلّت من نصوص الأدب القديم والقرآن والحديث؛ الأمر الذي يشقّ على المتعلم الذي يجد نفسه غريباً عن مضامين نصوص الأدب القديم ومستواها الأدبي الراقى.

فضلاً عن غياب العلاقة، في ذهن التلميذ، بين دراسة البلاغة ودراسة النص والتعبير الكتابي والقدرة على التواصل...

وهكذا نرى أن إغفال التعليم (في القسم خاصة) لبناء تمثّلات صحيحة عن المادة، واتخاذ طريقة وجمية، واعتماد نصوص ذات دلالة اجتماعية وثقافية، وموافقة لاهتمامات المتعلم ومناسبة لمستواه اللغوي... يُعدّ كل هذا من أهم الأسباب التي تقف حجر عثرة أمام دارس البلاغة وتمنعه من تنمية كفاءته التواصلية.

الكلمات المفتاحية:

طريقة / تدريس / تعليم / البلاغة / تعليمية / الأهداف / تحليل النص / دراسة النص / دراسة الأسلوب.

Résumé :

L'apprenant, comme chaque être humain, n'entreprend un apprentissage que s'il prend connaissance de ses objectifs, son utilité, ses retombées sur sa vie scolaire et / ou sa vie sociale.

Ainsi, en ce qui concerne l'étude de la rhétorique, l'élève, qu'il soit au lycée ou à l'université, s'en est construit de fausses représentations, qui font qu'il ne perçoit pas la pertinence d'étudier cette matière, ni sa fonction, encore moins son lien avec les autres matières de la même discipline (langue arabe).

Il ne voit pas dans quelle mesure il pourrait s'en servir pour étudier un texte, rédiger, communiquer...

Aussi, nous pensons que les causes essentielles qui sont à l'origine du non-intérêt des élèves pour l'étude de la rhétorique se résument ainsi :

- Objectifs de la matière non précisés en classe
- Méthode utilisée non pertinente
- Textes- supports non adéquats au niveau linguistiques de l'élève, non significatifs sur les plans social et culturel ...
- Absence de motivation concernant l'étude d'une matière que l'élève perçoit comme inutile ...

Nous nous attellerons dans cet article à détailler les principales causes qui entravent l'étude de la rhétorique, et empêchent l'apprenant de fructifier ses efforts dans la maîtrise de la langue arabe et son utilisation correcte et judicieuse dans toute communication

تمهيد

قد يدل فهم التلميذ للبلاغة على تصور ضيق لهذه المادة وعدم إدراكه لفائدة دراستها.

فالمتعلم، مهما كانت سنه، نفعي في إقباله على المعرفة والتعلم، ولا يربط صلة إيجابية بالتعلّيمات التي تقترح عليه ما دامت فوائدها غير ملموسة.

والبلاغة العربية ليست تلك الممارسة الفنية اليومية التي عرفها العرب قديما، بل تبلورت مع مرّ العصور وظروف الناس الحياتية، وبفضل تطور العلوم والمعرفة،

حيث ظهرت علوم اللسان التي قاربت البلاغة، وتناول كل علم منها جانبا وفق منحنى معين ونهج محدّد.

لا يعني هذا أن علوم اللسان الغربية أضفت الجديد على البلاغة العربية، ولكنها قد تساعد من استوعب التراث البلاغي وتشبّع به على ممارسة قد تكون وظيفيّة وإجرائيّة من شأنها تبسيط الجانب التعليمي.

ومع ذلك لم يستفد تعليمنا من هذه الدراسات اللغوية الحديثة، والدليل على ذلك التصرّو الذي يحمله المتعلم عن البلاغة.

الأمر الذي جعلنا نتساءل: لماذا يعزف المتعلم عن البلاغة ؟ ما هي الأسباب التي تجعلها مادةً مستعصية يتخوّف منها التلميذ؟ ما هي الطريقة أو الطرائق التي يمكن اتخاذها مسلكا لتقريب هذه المادة من دارسيها وتمكينهم منها؟ سنعمل على الإجابة عن هذه الأسئلة في قسمين:

- في مقال أول، نهتم فيه بالسبب الذي نراه أساسيًا في هذا النفور وهو التمثّلات التي يحملها المتعلم عن مفهوم البلاغة وعدم إلمامه بوظيفة البلاغة والفوائد التي يمكن أن يحصل عليها من وراء دراستها.

- ثم، في مقال ثانٍ، سنبيّن أن تبسيط هذه المادة وتحبيب المتعلم فيها أمر ممكن لو اتّخذنا طريقة أو طرائق تعليمية مناسبة لطبيعة البلاغة. سنستهل عملنا بتلّؤس الدلالات الحقيقيّة لمفهوم البلاغة الذي اتسع ككرة الثلج التي يزداد حجمها بشكل متنام مع تدحرجها.

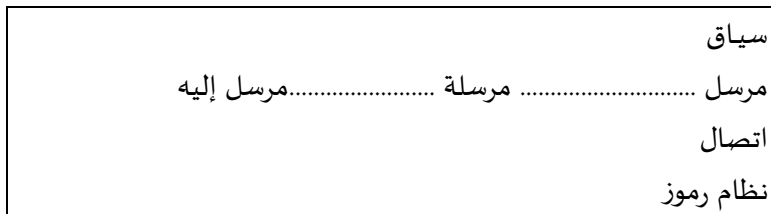
إن واقع الأمر أن إقبال المتعلم على دراسة البلاغة مرهون بإلمامه بحدود هذه المادة وتأثيرها المباشر على تواصله المدرسي والاجتماعي على حدّ سواء. فلا نجوع في التعبير عن الفكر والذات ولا في فهم فكر الآخرين وذواتهم بعيدا عن البلاغة. وفيما يأتي ذكرٌ لأهم العناصر التي يتكوّن منها مجال البلاغة والتي تحدد معالم دراستها:

• التواصل اللغوي

تدرس وظائف اللغة من خلال العوامل المكونة لكل عملية لغوية. ولكل تواصل كلامي، بداية بالمرسل الذي يبعث بمرسلة إلى المرسل إليه. ولكي تكون المرسلة فاعلة، فإنها تتطلب أولا سياقًا ترجع إليه، وهو سياق يمكن فهمه من قبل المرسل

إليه، و يكون إما كلاميا أو قابلا لأن يكون كلاميا؛ ثم تتطلب المرسلّة نظاما رمزيا، مشتركا، بكامله أو على الأقل في بعضه، بين المرسل والمرسل إليه (أو بين المرّمز ومحلل الرموز)؛ وأخيرا، تتطلب المرسلّة نقطة اتصال، أي قناة طبيعية (فيزيائية مادية) واتصالا نفسيا بين المرسل والمرسل إليه. وهو اتصال يسمح لهما بإقامة التواصل والحفاظ عليه.

هذه العوامل التي تضمن التواصل الكلامي " قدمها جاكوبسون في رسم بياني على الشكل التالي"¹:



وبناء على أن اللغة وسيلة تواصل، فإنها تقوم بوظائف عديدة²: التواصل، دعم الفكر، التعبير، الوظيفة الجمالية، والتفاهم بين الأفراد ...
 " فالمتلقي شخص أساسي في فعل الكلام، بناء على أن التواصل موجه دائما نحو إنسان ما، وأن الكلام نقصد به الآخر، وأن اللغة تتحقق إذا ما وفرت مكان تلاقي الأفراد"³.

كثيرا ما يحصر معنى كلمة " التواصل " في الإشارة فقط إلى نمط خاص من العلاقات يقوم على نقل المعلومة وتبليغها قبل كل شيء، وتمكين المخاطب من معارف لم تكن بحوزته من قبل. فلا يقع التواصل إلا في حالة ما يبلغ شيء ما.

¹ - جورج مولينييه : الأسلوبية. ترجمة بسام بركة، ط 1. بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع، 1999. ص 13- 14

² - MARTINET, A : Eléments de linguistique générale, 4^e ed. Paris, Armand Colin / Masson, 1996. pp 9-10

³ - DUCROT, O : Dire et ne pas dire, 2^e éd. corrigée et augmentée. Paris, Hermann, 1980. p1

غير أن " العلاقات بين المخاطبين interlocuteurs لا تنحصر في تبادل المعلومات والمعارف، بل تتجاوزها إلى علاقات إنسانية، توفر لها اللغة الفرصة والوسيلة؛ وكذلك الإطار المؤسساتي، والقاعدة... فاللغة، على هذا الأساس، ليست فقط شرطاً للحياة الاجتماعية، ولكنها تصبح كيفية من كفايات الحياة الاجتماعية"⁴.

● وظائف اللغة

حدّد جاكوبسون الوظائف اللغوية كما يأتي :

- الوظيفة التعبيرية أو الانفعالية، والتي تركز على المرسل، وتعبر عن مشاعره وتكشف عن حاله. كما تهدف إلى تعبير مباشر عن موقف الشخص تجاه ما يتكلم عنه.

- الوظيفة الندائية، وتتمثل في النداء والأمر، اللذين يتوجه بهما المرسل إلى المرسل إليه لإثارة انتباهه أو ليطالب منه القيام بعمل من الأعمال.

- وظيفة إقامة الاتصال، أو لإطالته، أو لقطعه، وللتأكد من أن حلقة التواصل تعمل (ألو، أسمعني؟).

- وظيفة اللغة الواصفة التي تتناول اللغة نفسها، إذ قد يسأل المرسل: "هل فهمت ما أردت قوله ؟".

فاللغة هنا هي نفسها مادة الدراسة.

- الوظيفة المرجعية، وهي تحدد العلاقات بين المرسل والمرسل إليه من أشياء موجودة أو متخيلة.

- الوظيفة الشعرية للغة، ويعرفها جاكوبسون بأنها تتميز بالتشديد على المرسل لحسابها الخاص. فهي وظيفة غائية تتجلى في إدراك الكلمة من حيث هي كلمة تتمتع بوزنها الخاص وبقيمتها الذاتية. والوظيفة الشعرية ليست الوظيفة الوحيدة للفن اللغوي، إنها فقط الوظيفة المهيمنة والقاطعة، في حين أنها لا تقوم إلا بدور مساعد وثنائي في النشاطات اللغوية الأخرى.

يرى جاكوبسون أن عملية التواصل تتم بعد أن يختار المتكلم الكلمات من مخزونه اللغوي، ويؤلف فيما بينها تبعاً لقواعد اللغة التي يستعملها ويكون منها رسالة يعبر فيها عن حاجاته وأفكاره. ثم يثبت المرسل هذه الرسالة إلى المتلقي الذي

⁴ - DUCROT, O : Dire et ne pas dire. pp 2-4

يقوم بفك رموزها وفهمها وذلك بالرجوع إلى كفايته اللغوية ومخزونه اللغوي. فالمرسلة هي موضوع التواصل بين المرسل والمرسل إليه وهي كذلك الغرض الأساسي منه.

درس جاكوبسون العلاقة بين الكل والجزء وكيف أن أجزاء المرسلة تساهم في تكوين مرسلّة كاملة تختلف في معناها عن معنى كل عنصر على حدة، وكيف أن معنى كلمة ما يختلف تبعاً للسياق الذي ترد فيه. فجاكوبسون لا يتكلم عن المعنى بل عن المعاني، لأن لكل مفردة معاني عديدة ومختلفة أحياناً، ولا يمكن أن نعرف المعنى الدقيق لمفردة إلا إذا وضعناها ضمن سياق معين. إضافة إلى ما للروابط النحوية وللطريقة التي ننظم بها سياقاً معيناً من أهمية في فهم وتحديد معنى كل مفردة.

• الحذف عند الجرجاني

قد يتعامل دارس البلاغة مع بيت شعر ليتبين أثر الحذف (على سبيل المثال) على الكلام، وهذا ما فعله الجرجاني عند تحليله بيتاً للبحتري:

"وكم دُذْتُ عَيٍّ من تحامل حادث * وسورة أيام حَزُنَ إلى العظم

"الأصل لا محالة حزن اللحم إلى العظم إلا أن في مجيئه به محذوفا وإسقاطه له من النطق وتركه في الضمير مزية عجيبة وفائدة جليلة، وذلك أن من حذف الشاعر أن يوقع المعنى في نفس السامع إيقاعاً يمنعه به من أن يتوهم في بدء الأمر شيئاً غير المراد، ومعلوم أنه لو أظهر المفعول فقال: وسورة أيام حزن اللحم إلى العظم، لجاز أن يقع في وهم السامع إلى أن يجيء إلى قوله إلى العظم أن هذا الحز كان في بعض اللحم دون كله وأنه قطع ما يلي الجلد ولم ينته إلى ما يلي العظم، فلما كان ذلك كذلك ترك ذكر اللحم وأسقطه من اللفظ ليبرئ السامع من هذا ويجعله بحيث يقع في أنف الفهم [أول الفهم] ويتصور في نفسه من أول الأمر أن الحز مضى في اللحم حتى لم يردّه إلا العظم. فيكون دليل أوضح من هذا وأبين وأجلى في صحة ما ذكرت لك من أنك قد ترى ترك الذكر أفصح من الذكر، والامتناع من أن يبرز اللفظ من الضمير أحسن للتصوير".⁵

⁵ - عبد العزيز حمودة : المرايا المخدبة، من البنيوية إلى التفكيك. الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1998. ص 374-376

يَبِّينُ الجرجاني في تحليله بيتا من الشعر، الوظيفة الجمالية والدلالية التي أداها حذف كلمة واحدة في البيت، وهي المفعول به في "حزن اللحم". ولم يتعرض الجرجاني بالمناقشة إلى نظم البيت أو حتى لمناقشة الصورة الشعرية. فاللفظ المحذوف هنا هو المسكوت عنه والمسكوت عن "اللحم" يخلق " فجوة " يقوم المتلقي بملئها.

● أدبيّة النص

قد يُتناول النص من زاوية الأدبية وغير الأدبية، ومن حيث علاقته بمؤلفه، وعلاقته بقارئه، ومن زاوية الشكل: قرائي أم كتابي. " وقد نجم عن هذا كله نظريات في "استقبال" النص، حيث يقوم القارئ، وينهض ليعطي النص حقه من الدلالة التي قصدها كاتب النص، قدر الطاقة. والقارئ هنا مطلوب منه أن يفسر النص وينتج إلى جواره نصا جديدا فيما يسمى بإنتاج الدلالة، أو النصوص الموازية".⁶

ويمكن كذلك دراسة الخطاب الأدبي بالتركيز على وظيفته الشعرية، بناء على وجود محورين رئيسين في الممارسة الأسلوبية هما :

- محور الإطار التأويلي، وهو دراسة الوظيفة الشعرية، من خلال البعد الصوتي والمفرداتي والنحوي والدلالي.

- محور طبيعة العمل الأدبي، أي انتماء النص المدروس إلى نوع في معين (قصيدة، قصة قصيرة، رواية، الخ ...)

على أن كل عنصر من العناصر المكونة للغة النص في أي إطار من هذين الإطارين مرهون بوجود العناصر الأخرى ولا يعمل إلا من خلال عملها.

يقول رومان جاكوبسون: "إن موضوع العلم الأدبي ليس هو الأدب، وإنما الأدبية، أي ما يجعل من عمل ما عملاً أدبياً"⁷. و يحدد الوظيفة الشعرية للكلام انطلاقاً من تحديد الأسلوب باعتباره معطى لسانيا يشكل بنية الخطاب وذلك بعده الخطاب حدثاً لسانياً. والحدث اللساني حسب جاكوبسون هو تركيب عمليتين متواصلتين في الزمن، ومتطابقتين في الوظيفة. وهما اختيار المتكلم لأدواته التعبيرية

⁶ - مصطفى السعدي: المدخل اللغوي في نقد الشعر، قراءة بنيوية. الإسكندرية، منشأة المعارف، 1987.

⁷ - نور الدين السد: الأسلوبية و تحليل الخطاب، ج 2. الجزائر، دار هومة، د.ت. ص 11

من الرصيد المعجمي للغة، ثم تركيبه لها تركيباً يقتضي قوانين النحو، وسبل التصرف في الاستعمال، فإذا بالأسلوب يتحدد بأنه توافق بين العمليتين.

ويرى تودوروف أن العمل الأدبي ليس هو ذاته موضوع الشعرية، ويدعو إلى "استعمال مفهوم الخطاب الأدبي بدل الأدب أو العمل الأدبي، وذلك لاعتبارات عديدة؛ من بينها أن هناك علاقات بين الخطابات سواء كانت أدبية أو غير أدبية، وتحديد مفهوم الخطاب الأدبي يساعد على إبراز الخصائص التي تميزه عن غيره"⁸.

والخطاب الأدبي مفارق لمألوف القول، ومخالف للعادة، وبخروجه هذا يكتسب أدبيته ويحقق خصوصيته. فاختلاف الخطاب الأدبي عن صنوف الخطاب الأخرى يكون بما يركبه فيه صاحبه من خصائص أسلوبية، تفعل في المتلقي فعلاً يقرره الكاتب مسبقاً ويحمله عليه، وبما تقتضيه الكتابة من وسائل تختلف عن مقتضيات المشافهة.

ولكي تكون لأي نص نصية، ينبغي أن يعتمد على مجموعة من الوسائل اللغوية التي تخلق النصية، أهمها: الضمائر، تكرار كلمات بعينها أو مقاطع، أسماء الإشارة، الأسماء الموصولة، ظروف الزمان، ظروف المكان...

وجميع هذه الوسائل اللغوية وسواها تسهم في اتساق الخطاب الأدبي وانسجامه. هذا بالإضافة إلى عناصر أخرى مثل: الاستبدال، وهو تعويض يكون في المستوى النحوي أو المعجمي ويتم بين كلمات أو عبارات، كما يسهم الحذف والفصل والوصل وسوى ذلك في عملية تماسك الخطاب؛ وهذه الظواهر اللغوية تتم وفق أنساق أسلوبية يتصرف فيها منشئ الخطاب حسب مقتضى الحال، وبحسب الغاية المتوخاة من الخطاب.

انتشر مفهوم أدبية الأدب في الحركة النقدية العربية الحديثة، والأدبية لفظ وليد النقد الحديث يطلق على ما به يتحول الكلام من خطاب عادي إلى ممارسة فنية إبداعية، أي أن الأدبية هي مجموع الطاقات الإيحائية في الخطاب الأدبي، وذلك لأن الذي يميزه كثافة الإيحاء وتقلص التصريح، وهذا يخالف استعمال اللغة استعمالاً نفعياً في الكلام العادي. و"الشعرية" في الخطاب الأدبي تتحدد بنسيج الروابط بين طاقة الإخبار وطاقة الإيحاء.

⁸ - المرجع نفسه، ص 16

وقد أكد جاكوبسون أن موضوع علم الأدب ليس الأدب بل الأدبية؛ أي العوامل التي تجعل الأثر الأدبي أدبيا، أو الميزات التي يكون بها الأثر أثرا أدبيا، كما حصر كثير من النقاد العرب اهتمامهم في نطاق النص، وسكتوا عما يتصل به اتصالا مباشرا أو غير مباشر من عوامل نفسية أو اجتماعية، قد يدل عليها النص، وحجتهم في ذلك أن الدراسات التي تتناول الأثر الأدبي من الوجهة النفسية أو الاجتماعية أو غيرهما تخرج عن نطاق علم صناعة الأدب أو "الشعرية".

● البلاغة الجديدة

أخذت بحوث البلاغة الجديدة تنمو منذ نهاية الخمسينيات من القرن العشرين حتى الآن، إذ ولد مصطلح البلاغة الجديدة عام 1958 في عنوان أحد كتب بيرلمان PERELMAN، تحت اسم "مقال في البرهان: البلاغة الجديدة".⁹ يحاول المفكر في هذا الكتاب إعادة تأسيس البرهان أو "المحااجة الاستدلالية"، التي استعملت أصلا كتقنية لدراسة المنطق التشريعي والقضائي، ثم امتدت إلى بقية مجالات الخطاب المعاصر. وقد عرفت هذه المدرسة فيما بعد بمدرسة "بروكسل". "أما مبادئها فإنها تركز وظيفة اللغة التواصلية، والصلة بالتقاليد البلاغية الكلاسيكية، على اعتبار أن الأشكال البلاغية أدوات أسلوبية ووسائل للإقناع والبرهان".¹⁰

إن هدف نظرية البرهان لدى بيرلمان هو دراسة تقنيات الخطاب التي تسمح بإثارة تأييد الأشخاص للفروض التي تقدم لهم، أو تعزيز هذا التأييد على تنوع كثافته.

"ويرى بيرلمان أن بحوثه البرهانية تتجاوز بآماد بعيدة بلاغة الأقدمين، وتغفل بعض الجوانب التي ظفرت باهتمامهم. فبالنسبة إليهم مثلا كان هدف البلاغة قبل كل شيء هو فن الكلام الممنوع للجمهور. فهي تتصل إذن باستخدام لغة

⁹ - ROBRIEUX, Jean-Jacques: Eléments de rhétorique et d'argumentation. Paris, Dunod, 1993. p 4

¹⁰ - DUBOIS, Jean et autres: Rhétorique générale. Paris, Librairie Larousse, 1970. p 11

الحديث، وبالخطب التي تلقى في الساحات العامة، أمام حشود من الناس؛ وتستهدف الحصول على تأييدهم للأطروحات المقدمة".¹¹

والخاصية الأساسية لهذه البلاغة الجديدة أنها "منطقية". فنظرية البرهان تهدف إلى بحث سبيل التأثير عبر الخطاب بشكل فعال في الأشخاص، " ويمثل الحجاج أحد أهم عوامل الانسجام الكلامي، إذ يفترض عملا معقدا نهائيا، وتسلسلا مهيكلًا لحجج تربطها استراتيجية شاملة ترمي إلى حمل الجمهور على تبني الأطروحة التي يدافع عنها الالافظ.

والحجاج نوع من التفاعل الكلامي يهدف إلى تغيير حالة معتقدات شخص. وما يميز الحجاج أنه لا يؤثر مباشرة على الغير (كأن يوجه له أمرا مثلا)، وإنما قد يكون لتنظيم الخطاب ذاته أثر إقناعي...

كما يدمج الحجاج مجموعة من الموارد التي يمكن استغلالها للدفاع عن أطروحة قابلة الوقوع".¹²

ويذهب بيريلمان إلى أن بعض الأشكال التعبيرية يمكن أن تنتج تأثيرا جماليا محددا، يرتبط بالاتساق والهارمونية والإيقاع، حتى إنها قد تمارس فعالية برهانية لما تثيره من إعجاب أو بهجة أو إثارة.

وينفي بيريلمان وجود أدب بدون بلاغة، على اعتبار أنها فن التعبير، وليست مجرد إجراءات بلاغية. وهذا يعني أن الإسراف الكمي في درجة كثافة الأشكال البلاغية قد يؤدي إلى إهدار لفعاليتها الوظيفية، كما حدث في عصور البديع الزخرفي للبلاغة العربية، حيث أصبحت تلك الإجراءات هدفا في حد ذاتها.

ومن أهم مبادئ هذه البلاغة ربط الشكل بالمادة، ومقاومة الفصل بينهما؛ وعدم حصر البلاغة في فن عرض التفكير بطريقة شكلية محضة، وعدم دراسة الأبنية والأشكال الأسلوبية بمعزل عن الهدف الذي تؤديه في عمليات البرهان.

ويعتبر بيريلمان أن الشكل البلاغي figure rhétorique برهان كلما استطاع أن يحدث تغييرا، وكان استخدامه مناسبا للموقف. وعلى العكس من ذلك،

¹¹ - PERELMAN, Ch; OLBRECHT-TYTECA, L : La nouvelle rhétorique. Traité de l'argumentation, T 2.Paris, PUF, 1958. p

¹² - MAINGUENEAU, Dominique : L'analyse du discours. Paris, Hachette, 1991. p 228

إذا كان الخطاب لا يثير تأييد المتلقي سيدرك الشكل البلاغي حينئذ باعتباره مجرد زينة أو حيلة أسلوبية.

وعندئذ نرى أنه لا يمكننا أن نقدر مسبقا ما إذا كانت بنية محددة ستقوم بدور الشكل البلاغي البرهاني أو بمجرد دور الشكل الأسلوبى " التزيينى ". وغاية ما هناك أن بوسعنا أن نكتشف عددا من الأبنية الصالحة لكي تتحول إلى أحد الشكلين، بناء على سياقها، ومثل ذلك التلميح؛ إذ إن بنيته ترتبط بعلاقة مع شيء ليس هو الموضوع المباشر للخطاب، فإذا تم تلقي هذه الطريقة في التعبير على أنها غير عادية كنا حيال شكل بلاغى.

• فى حد الأسلوب

إن كلمة أسلوب " يستعملها العلماء ليدلوا بها على منهج من مناهج البحث العلمى، ويستعملها الأدباء فى الفن الأدبى قصصا أو جدلا أو تقريرا، وفى العنصر اللفظى سهلا أو معقدا، وفى إيراد الأفكار منطقية أو مضطربة، وفى طريقة التخيل جميلة ملائمة أو مشوهة نابية. وكذلك الموسيقيون، ومثلهم الرسامون ... وهكذا حتى أصبحت كلمة " أسلوب " تكاد ترادف كلمة الشخصية فى المعنى.

إن كلمة " الأسلوب " من الكلمات الشائعة فى عصرنا هذا عندما نتكلم عن الآثار الأدبية. وهى كلمة مطاطة، يمكن أن تشير إلى الألفاظ وطريقة ترتيبها، أو المعانى وطريقة سردها".¹³

ففى تحمل نوعا من الدلالة على القيمة الأدبية (حكم بالاستحسان أو ضده) وتدل على نوع من التمييز، فعندما نقول: " فلان عنده أسلوب "، فنحن لا نقصد استحسان طريقته فى الكتابة، بل نقصد قبل ذلك إلى أن هذه الطريقة متميزة عن غيرها من الطرق.

يجمع الدارسون على أن الأسلوب يتناول:

أ - عناصر التعبير اللغوى من مفردات وجمل.

ب - عناصر التعبير البىانية، وهى ترجع إلى الوضوح والقوة والجمال.

ج - العوامل المؤثرة فى الأسلوب وتعود إلى عاملين هما شخصية الأديب والموضوع.

¹³ - شكرى محمد عىاد : مدخل إلى علم الأسلوب، ط4. القاهرة، أصدقاء الكتاب، 1998. ص 11-

وطريقة نظم الكلام هي جوهر الأسلوب وبها يمتاز كل أديب عن سائر الأدباء لأنها هي المظهر الأصيل للنتاج الأدبي، بينما الكلمات والجمل والفكر مشاعة بين الجميع.

والأسلوب الأدبي يشمل عناصر ثلاثة: الأفكار والصور والعبارات. وعليه، يكون الاختيار الذي يتناول الأفكار والصور والعبارات عملاً أسلوبياً. وهو طريقة صوغ الذي يتصرف في تلك العناصر بما يراه أليق بموضوع الكلام.

أما عنصر العاطفة فيعد في الأدب الدافع المباشر إلى القول وروحه، وهذا العنصر هام إلى درجة أنها تحتاج غالباً، لأجل أدائه، إلى الخيال الذي هو لغة العاطفة ووسيلة تصويرها وبعثها في نفس القارئ.

" إن الأسلوب في النص الأدبي هو الكيفية التي يتشكل بها النص، ولا يمكن أن يكون هناك نص دون أسلوب يتم به صوغه، ومن خلاله يحقق خصوصيته. فالأسلوب هو النص في ذاته " ¹⁴.

كما يرى بعض الدارسين أن " الأسلوب ينطوي على تفضيل الإنسان بعض طاقات اللغة على بعضها الآخر، في لحظة محدودة من لحظات الاستعمال " ¹⁵.

ويذهب علماء الأسلوب إلى أن " عملية الخلق الأسلوبية إنما تستوي في الاختيار أولاً وفي التركيب ثانياً. فشأن منشئ الكلام أن يختار من الرصيد اللغوي الواسع مظاهر من اللغة محدودة ثم هو يوزعها بصورة مخصصة، فيكون بها خطاباً، وينطبق هذا على جميع أنواع الخطابات الأدبية وغيرها.

والأسلوب يمكن تعريفه بأنه اختيار يقوم به المنشئ لسمات لغوية معينة بغرض التعبير عن موقف معين، ويدل هذا الانتقاء على إثارة المنشئ وتفضيله لهذه السمات على سمات أخرى بديلة، ومجموعة الاختيارات الخاصة بمنشئ معين هي التي تشكل أسلوبه الذي يمتاز به من غيره من المنشئين " ¹⁶.

ومن صفات الأسلوب، يمكن التركيز على ثلاثة منها قياساً على الغايات التي يقصد إليها المنشئون ¹⁷:

¹⁴ - نور الدين السد: الأسلوبية وتحليل الخطاب، ج 1. ص 135

¹⁵ - المرجع نفسه. ص 137

¹⁶ - المرجع نفسه. ص 156

¹⁷ DULIERE, André : Les secrets de la langue française. Montréal,

- الوضوح *clarté* لقصد الإفهام: على البليغ أن يكون واضحا مفهوما يرمي إلى إفادة قرائه. والمصدر الأول للوضوح هو عقل الأديب، فيجب على الكاتب أن يكون فاهما ما يريد أدائه فهما دقيقا. ثم يحرص على أدائه كما هو، لذلك كان الوضوح صفة عقلية قبل كل شيء. وبعد ذلك يأتي التعبير اللغوي الذي يتطلب من المنشئ ثروة لغوية وقدرة على التصرف في التراكيب والعبارات لتلائم أفكاره وطريقة تفكيره.
- القوة *force* لقصد التأثير: إذا كان الوضوح ألزم صفات الأسلوب - لأنه يحقق الغاية الأساسية، وهي الإفهام - فالفنون الأدبية التي يغلب فيها الوضوح هي النصوص القائمة على المعاني العقلية لقصد الثقافة كالقانون والفلسفة والجغرافيا.

ولكننا أحيانا لا نقتصر فيما نكتب على نشر الحقائق وإنما نعنى كذلك بإيقاظ العقول الخاملة وبعث الشعور والحماسة، وإثارة العواطف في نفوس الناس، وبذلك نهب للأفكار حياة أقوى من حياتها العقلية، لتكون ممتعة مؤثرة.

- الجمال *beauté* للإمتاع (أو السرور): الجمال صفة لازمة للأساليب الأدبية. وهو ليس في تلك المحسنات البديعية والصور الخيالية التي يصطنعها الكتاب عمدا، والحق أن دخول الأساليب الأدبية يكون حين تدعوها طبيعة المعاني لتقويتها وإيضاحها، أو حين يلجأ إليها الخيال ليصور بها عاطفة. والجمال صفة نفسية تصدر عن خيال الأديب وذوقه، يكون بخلو الأسلوب من التنافر والخشونة التي تؤذي الحس والذوق.

خاتمة

وهكذا ترى بعض الاتجاهات أن الأسلوبية جاءت بديلا عن علم البلاغة القديم. وترى اتجاهات أخرى أن بين البلاغة والأسلوبية علاقة وثيقة، ثم يأتي آخرون ليقرروا علاقتها الوثيقة مع النقد الأدبي وليس مع البلاغة. وينهض آخرون ليعارضوا ذلك ويقولوا إن الأسلوبية بعيدة عن النقد الأدبي...

ومهما يكن من أمر فالأسلوبية هي دراسة التراكيب اللغوية الخاصة بالأدبية والتي تكون محققة في خطاب محدد. وهذا يعني أن للأسلوبية هدفا واحدا هو: "

البحث في النص عن العناصر الموجودة فيه والتي تجعل منه نصا أدبيا، وذلك في سبيل تحديد خصوصية هذه العناصر وطبيعة عملها".¹⁸

وهي علم يتناول النصوص بالتحليل والدراسة اللغوية بقصد الكشف عن أسلوب صاحبها أولا، وطرق تفكيره ونفسيته وعواطفه ثانيا.

وهي إذ تهتم باللغة والأسلوب والكاتب، تربط ذلك كله بالموقف الذي انطلق منه الكاتب أو المتفنن حيث يبدع بتعايير لغوية خاصة. وفي ذلك يبرز الربط واضحا بين البلاغة العربية القديمة والأسلوبية العربية الحديثة.

وهكذا يتأكد لدى المهتم بشؤون تدريس البلاغة أن الخطوة الأولى التي لا يمكن تجاوزها هي تحسيس المتعلم بحدود المجال الذي تمتد فيه البلاغة ووظائفها وكذا فوائدها في حياة الفرد. فإذا جعل القائمون على التعليم، في كل المستويات، المتعلم ملما بالجوانب التي يشتمل عليها هذا المفهوم والأدوات التي توفرها لمستعمل اللغة حتى تكفل له التواصل اللغوي الفعال والوجيه بشقيه الشفوي والكتابي، وتمكّنه من بلوغ هدف كل بليغ والمتمثل في إنتاج " لكل مقام مقالا "، وإن تعددت أشكال هذا التعبير ووسائله.

مراجع الدراسة:

حمودة عبد العزيز: المرايا المحدبة، من البنيوية إلى التفكيك. الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1998

السعدني مصطفى: المدخل اللغوي في نقد الشعر، قراءة بنيوية. الإسكندرية، منشأة المعارف، 1987

السد نور الدين :

- الأسلوبية وتحليل الخطاب، ج 1. الجزائر، دارهومة، 1977

- الأسلوبية وتحليل الخطاب، ج 2. الجزائر، دارهومة، د.ت

شكري محمد عياد : مدخل إلى علم الأسلوب، ط4. القاهرة، أصدقاء الكتاب، 1998

مولينييه جورج : الأسلوبية. ترجمة بسام بركة، ط 1. بيروت، المؤسسة الجامعية

للدراستات والنشر والتوزيع، 1999

DUBOIS, Jean et autres: Rhétorique générale. Paris, Librairie Larousse, 1970

DUCROT, O : Dire et ne pas dire, 2^e éd. corrigée et augmentée. Paris, Hermann, 1980

¹⁸ - جرج مولينييه: الأسلوبية. ص 25

DULIERE, ANDRE : LES SECRETS DE LA LANGUE FRANÇAISE.
MONTREAL, GUERIN LITTERATURE, 1988

MAINGUENEAU, Dominique : L'analyse du discours. Paris, Hachette, 1991

MARTINET, André : Eléments de linguistique générale, 4^e éd. Paris, Armand Colin / Masson, 1996

ROBRIEUX, Jean-Jacques: Eléments de rhétorique et d'argumentation. Paris, Dunod, 1993

PERELMAN, Ch; OLBRECHT-TYTECA, L : La nouvelle rhétorique. Traité de l'argumentation, T 2. Paris, PUF, 1958